**المقاربة البنيوية في نقد الأدب**

تعدّ أفكار العالم اللغوي السويسري " **دي سوسير**" منطلقات مهمة لكثير من التوجهات النقدية ، حيث قدّم هذا اللّغوي مجموعة من المحاضرات أملاها على تلامذته في الدراسات اللغوية " **بجنيـف**" ، و التي أصبحت فيما بعد مبادئ أساسية للفكر البنوي .

ظهرت الشعرية كمنهجية شاملة مسّت جميع العلوم في نظام دقيق ، من شأنه أن يحلل الظواهر بكلّ أنواعها تحليلا علميا ، في الفيزياء ، و الرياضيات ، و الأنثروبولوجيا ، و علم الاجتماع ، و الفلسفة و الأدب ، و أهم فكرة ارتكزت عليها البنوية هي البحث في العلاقات التي تسود بين الأجزاء و "... تحدد النظام الذي تتبعه الأجزاء في ترابطها و القوانين التي تنجم عن هذه العلاقة و تسهم في بنيتها في الوقت نفسه ، فكل بنية هي لا محالة مجموعة علاقات تتبع نظاما معينا مخصوصا (1)".

و هكذا لم تعد البنوية تبحث في ماهية الشيء ، بقد ما بدأت تثير جملة من الأسئلة تتعلق بـ "... كيفية ترابط أجزائه و عملها مجتمعة (2)".

من القضايا الأساسية التي آثارها "دوسوسير" ، و تحوّلت إلى كشف في حقل الدراسات اللغوية ، هي تمييزه بين ثلاثة مفاهيم للغة ، "... اللّغة (Langage) بشكل عام (أي ما هو طبيعي في الإنسان ، أو ملكة الإنسان وقدرته على خلق الإشارات و العلامات واختراعها ... ثم اللّغة كنظام قائم (Langue) مثل اللّغة العربية أو الفرنسية ، ثمّ الحدث اللّغوي الفردي (Parole الذي يمارسه متكلم لغة ما (3)".

لقد شاهرت البنوية الصنفان الأخيران ، و من إضافات " دوسوسير" في توجيه الفكر اللّغوي البنوي تمييزه بين محورين :

" محور تاريخي تطوري من ناحية يركز على دراسة الظواهر في مسارها ... و تحولاتها المختلفة و محور تزامني و صفي يعين بتحليل نظام الظواهر في لحظة زمنية معينة بغض النظر عن تاريخها السابق و تطورها اللاحق (4)".

إلى جانب فعالية " **دوسوسير**" في دفع حركة البنوية ، هناك مدارس أخرى أسهمت بدورها في إغناء الشعرية في تشكيلها و منها مدرسة الشكليين الرّوس التي و جدت في روسيا في العشرينيات من القرن الماضي ، و قد ركزت هذه المدرسة في أطروحاتها على الشكل الأدبي ، الذي يقترب كثيرا من مفهوم البنوية ، و من أسباب وجود هذه المدرسة إيقاف التغييرات الإيديولوجية المبالغ فيها أثناء المقاربات التحليلية ، ممّا أفقد كثيرا من النصوص الأدبية جمالياتها و ابداعها ، و من الشخصيات المهمة الأخرى التي كان لها الفضل في بلورة الشعرية ، شخصية " **رومان جاكوبسون**" الذي ولد في حضن الشكلانيين الروّس ، لينتقل بعدها إلى حلقة براغ اللّغوية في الثلاثينيات ثم انتقل في الأربعينيات و الخمسينات إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

في الوقت الذي كانت فيه أروبا الشرقية تعمل على إخراج النقد من الإيديولوجيا ، كانت إرهاصات منهجية أخرى في العالم الغربي تعمل هي الأخرى على التأسيس لما يسمّى بـ **"مدرسة النقد الجديد**" التي أسفرت عن نتائج باهرة قريبة من نتائج الفكر اللغوي و الأدبي في أروبا الشرقية.

و ما دفع – أكثر – الفكر البنيوي إلى الازدهار هو ما حصل بين العالم الكبير " **ليفي ستراوس**" و "**جاكوبسون**" من تفاهم حول جملة من الأطروحات اللّغوية ، فكتبا تحليلا بنويا مشتركا حول "**سونيــت القطـط** " لـ " **بودليـــر**" ، الأول بمحموله الأسطوري و الأنثروبولوجي و الحكائي و الثاني بمحموله اللّغوي و الصوتي و الإيقاعي و يلتقيان لتفكيك نص شعري لأحد أكبر الشعراء الفرنسيين.

لم تعد البنوية تبحث في التاريخ و لا في السّير و لا في خارج النّص ، بل أصبحت تستحضر اللّغة في كل تعاملاتها ، و "... ذلك لأن طبيعة المادة المكونة للأدب في التحليل النقدي الأخير كانت هي اللّغة ، فالأدب لا يتكون من أفكار و لا مشاريع و لا أراء ، و إنما هو جسد لغوي ممثل للنص الأدبي .

و من ثمّ فإن أي مقاربة لتحليل هذا الأدب بمنهج علمي كان من المفروض عليها أن تبدأ من منطلق اللّغة ، لا من منطلق ما وراء اللّغة ، من فكر و ميتافيزيقا و أشياء أخرى لا ترتبط بالمادة المباشرة للأعمال الأدبية (1)".

على هذا الاعتبار تأسست البنوية في النقد الأدبي على مجموعة مبادئ (2) :

**أولا** : اعتبار المحور التاريخي في الدراسات الأدبية محورا مشبعا ، لم يعد هناك ما يبرره ...

خاصة على يد هؤلاء الأيديولوجيين الذين أسرفوا في تحويل كل شيء إلى تاريخ.

**ثانيا** : يتركز النقد في دراسة الأدب باعتباره ظاهرة قائمة في لحظة معينة تثمل نظاما شاملا ،

و الأعمال الأدبية تصبح حينئذ أبنية كلية ذات نظام ، و تحليلها يعنــي إدراك علائقها الداخلية و درجة ترابطها و العناصر المنهجية فيها و تركيبها بهذا النمط الذي تؤدي به

وظائفها الجمالية المتعددة.

**ثالثا** : ارتبطت البنوية كما أسلفنا سابقا بـ "**جاكوبسون**" ، الذي حلّل وظائف اللّغة طبقا

لمنظومة المرسل و الرسالة و المرسل إليه و قناة التواصل و الشفرة ، و تمثلت

وظائف اللّغة في ستة أبعاد ، أبرزها الوظيفة الشعرية ، التي توجد بمقادير مختلفة

في كل لغة أدبية و في كل جنس أدبي.

أثرت مفاهيم البنوية على كثير من المعتقدات الفكرية و الأدبية حيث أماطت اللثام عن ما يسمّى بالعبقرية ، و إنما ركزت على تحكم الكاتب في الصيغ و الأساليب و قوانين الكتابة ليس إلاّ ، كما لم تعد تشير البنوية إلى الخارج ، أو ما يسمى بالمحاكاة ، بقدر ما حوّلت الأنظار إلى النّص في حد ذاته ، حيث دعت الجميع إلى تأمل ألفاظه و صوره و البحث في العلاقات التي أنتجت لنا الاستعمال الجمالية ، كما دعت البنوية القارئ إلى الانخراط في العمل بالأدوات و ليس بالخلفيات الإيديولوجية ، و في ضرورة أن يحمل معه مفاتيح نقدية يحل بها الشفرات ، دون النظر في قصدية الكاتب ، لأن الكاتب مات بعد نشره للعمل ، و بالرّغم من كل انجازات البنوية من الشكلانية الروسية و شعرية دائرة براغ و انثروبولوجية لفي ستراوس و ممارسات بارت وتزنفيتانتودروف و جيرار جنيت و رومان جاكبسون...

بالرغم من كل هذا المسار الطويل في هذا الحقل اللّغوي و النقدي ، تلقت الشعرية اتهامات تتعلق بتكريسها للشكلية على حساب المضمون ، حيث أضحت عبارة عن مخططات و رسومات و حسابات أفرغت النّص من روحه ، و يستندون في ذلك إلى تخلي الكثير عن طروحاتها و منهم البنوي " **رولان بارت**" فهو بنفسه عام 1971 رفض علمية البنوية ، و كل محاولات التنظيم في دراسته الشعرية (2/5) و وصفها جاك دريدا بالتجريد و الاختزالية ، و وصمها تودروف بقتل المعنى ، في كتابه الأخير ، "**الأدب في خطر**".

و نتيجة لمأزق البنويةالشكلانية ، خرجت من عباءته االبنوية التكوينية أو التوليدية ، التي وقفت بين الشكل و الأسس الماركسية و الجدلية ، و من الذين عملوا على تأسيس هذا التوجه جورج لوكاش و بيير بورديو و لوسيانجولدمان الفرنسي الروماني الأصل ، الذي استفاد من كل المنجزات الماركسية و الجدلية ، و الأطروحات الفلسفية لكانط و هيجل ، و أفكار بياجيه و لوكاش .

و من أهم الملامح النقدية عند جولدمانمايسمى برؤيا العالم ، حيث "... كلما ازدادت قدرات المبدع ازداد اقترابه من تلك الرؤية و صدق تمثيله لها ، حتى و إن لم يع ذلك (1)".

لم تبق البنوية محصورة في أوربا الشرقية أو في الغرب ، بل كان لها حضورها المميز في الخارطة النقدية العربية ، و أهم الأسماء التي اشتغلت بالبنوية تنظيرا و تحليلا نذكر صلاح فضل ، جابر عصفور ، نبيلة ابراهيم ، كمال أبو ديب ، علي العيد ، خالدة سعيد ، عبد الله الغذامى ، محمد مفتاح ، محمد عبد المطلب ، عبد المالك مرتاض ، محمد برادة ، سيزا قاسم ...و آخرون